ثلث الليل الأخير

كان يمشي نحو مشنقته بخطى ثابتة رغم ثقلها، فلم يعد يفصله عن الموت سوى بضعة أمتار، حدق في الحبل الذي سيلوذ برقبته فوجده مرعبا، لقد كان يخشاه منذ الصغر، فقد كان يلتفت للوراء مجرد ما مر مشهد إعدام عبر شاشة التلفاز، لم يكن يتوقع أبدا أن نهايته ستكون مأساوية إلى هذا الحد، ولم يخطر على باله أن المشاهد التي كان يخشاها في يوم من الأيام سيكون هو بطلها في هذه الساعة، لقد كانت لحظة صمت رهيبة خشعت لها الآذان، فقد توقف عن المسير مجرد اقترابه من المشنقة، وارتجفت شفتاه بشكل ملحوظ، وتوغلت عيناه بشدة، وأصبح عرقه ينصب بغزاره كوابل أجاج، شهق نفسا عميقا اهتز له كامل الجسد وكأنه يستعيذ من لعنة برد قارصة قادمة، وبدأ يهطل الدموع حتى ارتوت الوجنتان، لقد كان منظره مشفقا للغاية، لكن هذه الشفقة لم تدخل قلبي الشرطيين اللذين بجانبه، فجراه بقوة نحو مصيره المحتوم، حينئذ لم يتمالك نفسه وأخذ يصرخ بقوة مما اضطر أحد الشرطيين لصفعه بقوة على وجهه قائلا:

- كفى! فلن ينجيك صراخك من الموت أبدا، ارض بقدرك،وقل لنا إن كنت تريد شيئا أخيرا من هذه الدنيا.

أرجعته هذه الصفعة لتوازنه الطبيعي، وتسلل السؤال إلى فؤاده بعذوبة، وكأنما قد أنقذه مما هو فيه، سرّح في خياله بعيدا وملئت الابتسامة فمه المبيض، تعجب الشرطيان من ردّة فعله وتبادلا نظرات الاستفهام! همس الشرطي الآخر في أذنه بسخرية

- هل تبتسم لملك الموت؟!

ثم سأله بحزم

- هل لديك طلب أخير؟!

هز رأسه بشدة كطفل صغير دلالة على الإيجاب، ثم قال متلهفا

- أريد رؤية زوجتي.

ضحك الشرطيان بشدة مجرد ما سمعا مرامه، واتهماه بالجنون فلا بد أن خوفه من الموت قد افقده عقله. فكيف له أن يطلب رؤية زوجته وقد ماتت مقتولة قبل مدة، وليس هذا فحسب بل كل الأدلة أثبتت أنه من قتلها، فهل يطلب القاتل رؤية ضحيته، إذن لا عجب من أن يستمر الشرطيان في الضحك.

لقد كانت زوجته آية في الجمال، وقد بذل قصارى جهده ليتزوجها، حيث أنه نافس العديد من الشبان الذين تقدموا لخطبتها بعزيمة قوية، حتى ظفر بها زوجة عزيزة على قلبه، وربطتهما المودة والرحمة بحبال متينة، وأصبح إخلاصه لها مضرب الأمثال للعديد من العشاق، وربما أن أقوى قصص عشقه لها قد تجلت في أسمى معانيها حينما تبين أنها لا تنجب الأطفال أبدا، ولن يكتب لها أن تكون أما في يوم من الأيام، فأظهر أمام عائلته أن سبب عدم القدرة على الإنجاب متعلق به وليس بزوجته، وذلك كيلا ينصح بالزواج على زوجته في يوم من الأيام.

رفعوه على كرسي الإعدام، وشدّوا عقدة الحبل حول رقبته، حينئذ شخّص بصره أمامه وكأنه يريد أن يموت قبل أن يشنق، أحس أن قلبه سيخترق صدره من شدة نبضه، وطاف حوله هاجس زوجته وهي تتأرجح في فضاء الغرفة ورقبتها معلقة بسلك الكهرباء المتدلي من السقف، لقد أخفى الاختناق علامات جمالها، وأصبحت جثة هامدة موحشة معلقة من رقبتها في وسط الغرفة، لقد كان على استعداد أن يشنق مئة مرة ولا يرى زوجته في

مثل هذا المنظر، على حين غفلة انتابه شعور السعادة حينما حكم عليه القدر أن يموت كما ماتت زوجته، فلا بد انه سيمر بكل مرحلة من مراحل موتها، وسيتذوق طعم الموت التي تذوقته زوجته بالنكهة نفسها.

- ألا تريد أن تنطق الشهادتين؟

كان الشرطي يسأله باهتمام، لعله ينال رحمة الله قبل أن ينتقل لمحطة الموت، لكنه ما يزال سارحاً بزوجته، متعجباً من مقتلها، فكيف داهمت الجرأة قلوبهم كي يتهموه بقتل أغلى الناس على قلبه. صحيح أن الأدلة قد أثبتت إدانته، لكن إحساس البراءة ما يزال يحلق في قلبه، ولا بد أن تظهر الحقيقة وينتصر الحق، حتى لو عانقت روحه الموت. تنفس الصعداء وحاول أن ينطق الشهادتين، لكن هناك شيء ما يصده عن النطق، فكيف له أن يستسلم للموت ولم يعرف بعد من قتل زوجته. ركّز نظره على باب القاعة، واستنجد بمن هم وراءه من خلال نظرات عيونه المغلوبة، فلعل أحدهم يأتيه بخبر البراءة.

- ما بك ألا تريد أن تنطق الشهادتين؟

- هل تريدنا أن ننفذ الحكم دون أن تتشهد؟

قال كل شرطي جملته بغيظ، بينما هو ما يزال يفكر في رحمة ربه التي ستنقذه من الموت، فهو لم ينسَ صباح ذلك اليوم المشؤوم حينما طلب من ربه الرحمة، وتمنى أن يكون في كابوس مؤلم ، فلم يتحمل قلبه المرهف أن يجد زوجته مقتولة بهذا المنظر الشنيع، فحينما دخل عليها الغرفة ووجدها مشنوقة بطريقة مرعبة، تجمدت كل الأحاسيس في جسده، وقف شعر رأسه من الهلع، حاول أن يتمالك أعصابه الثائرة، واقترب منها خطوة تلو خطوة وهو باسط يده أمامه محاولا أن يمسكها قبل أن يصلها، وقف أمامها كالتمثال،

وتفحص جسدها الهامد بعينيه، أمسك قدميها برفق وبدأ يقبلهما بحرارة، وفجأة صرخ صرخة مدوية قد أسمعت جيرانه وجعلتهم يهبون إليه للنجدة.

جلس أمام ضابط التحقيق، وبدأ بشرح ما حصل لزوجته بالتفصيل ودموعه قد اغرورقت في عينيه، فقال له الضابط باستحقار :

- هل تريد أن تخدعني بدموع التماسيح هذه، كل الأدلة تبرهن على أنك من قتلها!

- أدلة باطلة، أنا لم أعد أفهم أي شيء، كيف لي أن أقتل زوجتي.

وانهمرت عيناه في البكاء، فهو لا يصدق ما يحصل له، وما يزال متعجبا من هذه الأدلة التي جعلته مجرما

- يا رجل، هل أنت غبي لقد وجدنا شريط فيديو مسجلا عليه جريمتك منذ بدايتها، فضلا عن بصماتك التي وجدناها على سلك الكهرباء.

بالرغم أن أجهزة الأمن قد وجدت شريط فيديو يتبين فيه أنه من قتل زوجته، إلا أنه ما يزال ينكر قتله لزوجته، بل يدعي أنه يخرج في ثلث الليل الأخير من كل ليلة ليقوم الليل في المسجد، وبالفعل قد أثبتت التحريات أنه كان يخرج في كل ليلة وبالتحديد في ثلث الليل الأخير من البيت للعبادة، لكن التحريات أثبتت أنه قد قتلها بطريقة مؤلمة في بداية الثلث الأخير لتلك الليلة الملعونة، وبعد ذلك خرج كالعادة للعبادة، وحينما عاد في الصباح أصابه ما أصابه وكأنه ليس من قتلها، فقضيته ما زالت محيرة، والتناقضات ما زالت تقتحم شخصيته فكيف لرجل يقوم الليل في كل ليلة أن يقدم على قتل زوجته.

- اسمع يا هذا، إن كنت تماطل في نطق الشهادتين كي تؤخر الموت عن نفسك فهذا الأمر سيعذبك بدلا من أن يريحك.

وأخيرا قد أرخى أذنه للشرطي، وأغمض عينيه بهدوه، وبدأ بنطق الشهادتين.

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

حينئذ أقبل أحد الشرطيين نحو كرسي الإعدام لينفذ الحكم، لكن مجرد اقترابه ضجت الفوضى خارج القاعة، مما جعل الشرطي يتوقف عن تنفيذ الحكم، وذهب الآخر ليرى ما سبب الفوضى.

ربما أنها معجزة و ربما أنها نقطة تحول في تاريخ المحاكم، وبعيدا عن نهايات الأفلام السينمائية السعيدة، فقد دخل المحامي متلهفا وبيده قرار يوعز بوقف تنفيذ حكم الإعدام. فلقد أمر القاضي بتحويل المحكوم عليه إلى الطبيب النفسي. فقد طعن المحامي في الحكم، وظن أن الرجل مصاب بمرض في عقله، فالتناقضات المجبولة في شخصه تثير الاستفسارات حول صحة عقله.

حينئذ برز دوري، وأوكلوا لي مهمة كتابة تقرير بشأن حالته الصحية، وبعد أن أجريت له الفحوصات اللازمة تبين أنه مصاب بانفصام الشخصية، حيث أنه يظهر في ثلث الليل الأخير بشخصية السفاح المجرم بعدما يوهم زوجته انه خارج للعبادة، ويظهر في باقي اليوم بشخصية الرجل الملتزم الوقور.

بعد ظهور نتيجة الفحص تبين للمحكمة جرائم كثيرة كانت مجهولة، فقد فتح ملف جرائم ثلث الليل الأخير من جديد بعدما قيد الملف ضد مجهول، فقد كان السفاح المريض يخرج منذ فترة زمنية ماضية في ليال متفاوتة ويصعد على ظهر إحدى البنايات المرتفعة في قلب المدينة، ويطلق النار من سلاح كاتم للصوت على أحد المارة بشكل عشوائي، ثم يعود إلى بيته وكأن

شيئا لم يكن، وبذا يكون قد كشف سر جرائم ثلث الليل الأخير والتي أدخلت الهلع والذعر في قلوب الناس لفترة وجيزة من الزمن.

حاولت أن أتقرب منه كي أتمكن من علاجه بسهولة، ونجحت بالفعل في توطيد علاقة صداقة ما بيني وبينه، حتى اطمأننت إليه تمام الاطمئنان، لكنه في هذا اليوم كان غريب الأطوار رغم أننا لم ندخل في ثلث الليل الأخير، فقد تهجم علي ما إن رآني، وأمسكني من تلابيب ثيابي وأسند ظهري إلى الحائط بقوة، وحدق في عيني كوحش مفترس، حتى خشيت على نفسي منه وكدت أنادي على رجال أمن المستشفى ليخلصونني منه لولا أن تركني فجأة وانقلب حاله إلى رجل متزن عقلاني، فابتسم في وجهي ورتب على كتفي قائلا:

- أما كان بإمكانك أن تخفي نتيجة فحوصاتك عن المحكمة، أو بالأقل عني أنا بالذات.

ثم اقترب من أذني وهمس فيها بشجن

- ألا ترى أنهم لو شنقوني مئة مرة سيكون أهون علي من حياة مريضة تذكرني بإجرامي وتقطع ضميري من هول تأنيبه.

ابتعد عني قليلا ثم عاد إلى فراشه وحدثني بجملته الأخيرة قبل أن يخلد للنوم

- كم أحتاج يا صديقي لثلث الليل الأخير كي أرتاح من تأنيب ضميري.

النهاية